رســـالة الأديب

للأستاذ عباس محمود العقاد

في الرسالة التي صدرت (يوم ١٧ ابريل) كتب الأستاذ توفيق الحكيم من برجه العاجي يقول : « إن الدولة لا تنظر إلى الأدب بعين الجد بل إنه عندها شيء وهمي لا وجود له ولا حساب »

ثم يقول : « إن انعدام روح النظام بين الأدباء وتفرق شملهم وانصرافهم عن النظر فيما يربطهم جميعهم من مصالح وما يعنيهم جميعاً من مسائل قد فوّت عليهم النفع المادي والأدبي وجعلهم فئة لا خطر لها ولا وزن في نظر الدولة »

وفي الثقافة التي صدرت (يوم ٢٥ ابريل) كتب الأستاذ توفيق في هذا المعنى يسأل عن أدبائنا المعاصرين هل فهموا حقيقة رسالتهم ؟ ويذكر ما يصنعه أدباء أوربا « كلما هبت ريح الخطر على إحدى هذه القيم ـ وهي الحرية والفكر والعدالة والحق والجمال ـ وكيف يتجرد كل أديب من رداء جنسيته الزائل ليدخل معبد الفكر الخالد ويتكلم باسم تلك الهيئة الواحدة المتحدة التي تعيش للدفاع عن قيم البشرية العليا »

ثم يقول بعد أن وصف بسوء حال الأدب في مصر :

« أمام كل هذا وقف الأدب ذليلاً لا حول له ولا طول ، وضاعت هيبة الأدباء في الدولة والمجتمع ، وأنكر الناس ورجال الحكم على الأديب استحقاقه للتقدير الرسمي والاحترام العام . فالعمدة البسيط تعترف به الدولة وتدعوه رسمياً إلى الحفلات باعتباره عمدة . أما الأديب فمهما شهره أدبه فهو مجهول في نظر الرجال الرسميين ولن يخاطبوه (قط) ... على أنه أديب»

* * *

كلام الأستاذ الحكيم في هذين المقالين هو الذي ابتعثني إلى التعقيب عليه فيما بلي من خواطر شتى عن رسالة الأديب ، وشأن الأديب والدولة ، ومستقبل الأدب في الديار المصرية أو في الديار الشرقية على الإجمال

* * * ١٢ ٥٧

فهل من الحق أن الأدب محتاج إلى اعتراف من الدولة بحقوقه ؟

أما أنا جازم لا أستعيد بالله من اليوم الذي يتوقف فيه شأن الأدب على اعتراف الدولة ومقاييس الدولة ورجال الدولة

لأن مقاييس هؤلاء الرجال ومقاييس الأدب نقيضان أو مفترقان لا يلتقيان على قياس واحد

فمقاييس الدولة هي مقاييس القيم الشائعة التي تتكرر وتطرد وتجري على وتيرة واحدة

ومقاييس الأدب هي مقاييس القيم الخاصة التي تختلف وتتجدد وتسبق الأيام

مقاييس الدولة هي عنوان الحاضر المصطلح عليه

ومقاييس الأدب هي عنوان الحرية التي لا تقيد باصطلاح مرسوم ، وقد تنزع إلى اصطلاح جديد ينزل مع الزمن في منزلة الاصطلاح القديم

مقاييس الدولة هي مقاييس العرف المطروق ، ومقاييس الأدب هي مقاييس الابتكار المخلوق

مقاييس الدولة هي مقاييس الأشياء التي تنشئها الدولة أو تدبرها الدولة أو ترفعها الدولة تارة وتنزل بها تارة أخرى

ومقاييس الأدب هي مقاييس الأشياء التي لا سلطان عليها للدول بمجتمعات ولا متفرقات . فلو اتفقت دول الأرض جميعاً لما استطاعت أن ترتفع بالأديب فوق مقامه أو تهبط به دون مقامه ، ولا استطاعت أن تغير القيمة في سطر واحد مما يكتب ، ولا في خاطرة واحدة من الخواطر التي توحي إليه تلك الكتابة

ومن هنا كان ذلك العداء الخفي بين معظم رجال الدولة ومعظم رجال الأدب في الزمن الحديث على التخصيص

لأن رجال الدول يحبون أن يشعروا بسلطانهم على الناس ويريدون أن يقبضوا بأيديهم على كل زمان ، فإذا بالأدب وله حكم غير حكمهم ، ومقياس غير مقياسهم ، وميدان غير ميدانهم ، وإذا بالعصر الحديث يفتح للأدباء باباً غير أبوابهم ، وقبلة غير قبلتهم التي توجه إليها الأدباء فيما غبر من العصور

ولو بلغنا إلى اليوم الذي تعترف فيه الدولة بالأدباء لما اعترفت بأفضلهم ولا بأقدرهم ولا بأصحاب المزية منهم ، ولكنها تعترف بمن يخضعون لها ويرضون كبرياءها ويهبطون أو يصعدون بنغمها أو رضاها

ليسنا فى مصر بدعاً بين دول المغرب والمشرق ، فما من دولة فى العالم تعترف بأمثال برناردشو وبرتراند رسل ورومان رولان كما تعترف بالخمائة من أواسط الكتاب

* * *

هذا عن الأديب وشأنه المعترف به بين رجال الدول ، فماذا عن التفرق والتجمع ، أو عن أثر هذا أو ذاك فى تقويم أقدار الأدباء ؟

أصحيح أن الأدباء فى حاجة إلى الاجتماع ؟

أنفع من هذا وأقرب إلى تبيين الصواب أن تسأل : هل صحيح أن شاعرين يشتركان فى نظم قصيدة واحدة ؟ وهل صحيح أن مصورين يشتركان فى رسم صورة واحدة ؟ وهل صحيح أن الأدب فى لبابه عمل من أعمال التعاون والاشتراك ؟

الحقيقة أن الأدباء حين يخلقون أعمالهم فرديون منعزلون ، فلا حاجة بهم إلى محفل يسهل لهم الخلق والإبداع ، ولا فائدة لهم على الإطلاق من اتفاق أو اجتماع

والحقيقة أن التعاون إنما يكون فى مسائل الحصص والسهوم والأجزاء، ولا يكون فى مسائل الخلق والتكوين والإحياء

لأن الفكرة الفنية كائن حى ووحدة قائمة ليس يشترك فيها ذهنان ، كما ليس يشترك فى الولد الواحد أبوان

فإذا كان تعاون بين الأدباء ، فإنما يكون على مثال التعاون بين الآباء

إنما يكون تعاوناً على رعاية أبنائهم وحماية ذرياتهم ، وقلما يحتاج الآباء إلى مثل هذا التعاون إلا فى نوادر الأوقات

فإذا اجتمع الأدباء فلن يرجع اجتماعهم إلا إلى حوانى الأدب أو « ظروف » الأدب كما يقولون دون الأدب فى صميمه

وإذا اجتمع الأطباء فهناك طب واحد ، أو اجتمع المحامون فهناك قانون واحد وقضاء واحد ، أو اجتمع المهندسون فهناك هندسة واحدة وبناء واحد ، فكيف يجتمع الأدباء كما يجتمع الأطباء والمحامون والمهندسون وكل أديب منهم نموذج لا يتكرر، ونمط لا يقبل المحاكاة، وأدب تقابله آداب متفرقات

وإن محامياً قديراً ليغنى عن محام قدير ، ولكن هل يغنى أديب كبير عن أديب كبير ؟ وهل ينوب خالق فى الفنون عن خالق آخر فى الفنون ؟ كلا . . . لن ينوب هذا عن ذاك ولن يختلط هذا بذاك ، كما أن الوجه الجميل لا ينوب عند عاشقه عن الوجه الجميل ولا يشتركا معاً فى صفة الجمال

كل أديب نمط وحده ، وكل أديب فى غنى عن سائر الأدباء إلا أن يتعاونوا كما أسلفنا فى الحوانى والظروف دون الجوهر واللباب .

* * *

أفللأديب رسالة ؟

نعم ، ليس بالأديب من ليست له فى عالم الفكر رسالة ، ومن ليس له وحى وهداية

ولكن هل للأدب كله رسالة تتفق فى غايتها مع اختلاف رسائل الأدباء وتعدد القرائح والآراء ؟

نعم . لهم جميعاً رسالة واحدة هى رسالة الحرية والجمال

عدو الأدب منهم من يخدم الاستبداد ، ومن يقيد طلاقة الفكر ، ومن يشوه محاسن الأشياء

وخائن للأمانة الأدبية من يدعو إلى عقيدة غير عقيدة الحرية

أفيدرى الأستاذ توفيق ما هو — فى رأيى — خطب الثقافة الإنسانية الذى يخشاه دوهامل ويشفق منه كتاب أوربا كافة على مصير الذوق والتفكير والفن والشعور المستقيم ؟

أفيدرى الأستاذ توفيق ما هو — فى رأيى — سر الفتنة الحسية التى غلبت على الطبائع والأذواق وتمثلت فى ملاهى المجون أو ملاهى الأدب الرخيص ؟

سرها الأكبر هو وباء « الدكتاتورية » الذى فشا بين كثير من الأمم فى العصر الأخير

لأن الدكتاتورية كائنة ما كانت ترجع إلى تغليب القوة العضلية على القوة الذهنية والقوة النفسية

ولأنها ترجع بالإنسان إلى حالة الآلة التى تطيع وتعمل بغير مشيئة وبغير تفكير

وأين تذهب المعانى والثقافات، بين القوى العضلية والآلات؟

وأين الأديب الذى يستحق أمانة الأدب وهو يشير بدين الاستبداد ؟

لهذا بقيت عقول تكتب وقرائح تبدع فى الشعوب الديمقراطية، ولم يبق عقل ولا قريحة فى بلد من بلاد الدكتاتورية